جدلية التراث و الحداثة في قراءة النص المعرفي

البلاغة العربية أنموذجا

أ. اليزيد بلعمش جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

الملخص: في ظل التحولات الحادثة في العصور المتأخرة حصل في العديد من المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كثيرا من المفارقات بين مرجعياتها ومآلاتها, وقد أثر ذلك بدوره في المستوى العلمي والفكري سواء من ناحية الأطر التي كانت تسيره, أو من جهة الإنتاج الحاصل من وراء ذلك.

ولم ينطلق الفرد في تعامله مع هذه المعطيات الجديدة من فراغ, أو على حسب ما تملي عليه هذه التحولات والتي تسمى **حداثة**, وإنما صدر في ذلك عن تراكم معرفي سابق ينتمي إليه يسمى **تراثا**, وعندئذ وقع بين جاذبيتن: جاذبية تشده نحو هذه المعطيات الجديدة (الحداثة), وأخرى ترجعه إلى مرجعياته الأولى(التراث), فوقع بين جدلية ذات طرفين هي: جدلية التراث والحداثة, وقصد خبرة السلوك المعرفي للفرد في ضوء هذه الجدلية وأثرها عليه وتمييز السلوك المنتج والفاعل من السلوك المأزوم المزكوم, ارتأينا أن نراجع أثر هذه الجدلية في الخطاب البلاغي الحديث. من خلال هذه المداخلة البسيطة. والله الموفق.

ما قبل المقدمة: قبل الشروع في عرض هذه المداخلة, لا أكتمكم سرا يراودني, هو تهيبي الشديد من الولوج في مثل هذه المسائل, ولا أستطيع إنكار هذا التهيب أو التنكر له, ما دام أنه سر يملأ القلب, فهو إذا موجود فأفصح عنه ولا أبالي, ولا أفعل فعل الذين ينكرونه, لأني إن أنكرته أنكرت نفسي, واستلبت نفس غيري قميصا أتستر به, وهذا لا يصلح.

ولا تظنن أن هذا التهيب هو الذي يمنعني يجعلني مترددا, وإنما الشعور بحجم المأساة الناجمة عن الكلام في مثل هذه الموضوعات, إذ الحديث فيها هو حديث عن المنهج لا عن الموضوع, وقد جعلنا في هذه الآونة الحديث عن المنهج هو الأصل أو هو الموضوع ونسينا الموضوع, بفعل إغراقنا في البحث في هذه المسائل. وهذا بدوره احتاج منا أن نتحدث عن منهج معاملة مسائل المنهج فصار عندنا منهج المنهج, ثم إن منهج المنهج يحتاج إلى منهج, وعندئذ فتح الباب على متتالية أساسها :الحديث عن المنهج, وحدودها: الكلام الخارج عن الموضوع, وحلها مستحيل.

والحقيقة هذه هي, فمنذ أن بدأ الحديث عن المنهج نسي الموضوع, فضاع النص, فلم يعد هناك من يحسن فهم النص سواء النص المعرفي أو النص الأدبي, إلا القلة , رغم كثرة المتعلمين والعارفين.

ومنذ أن ظهر الحديث عن المنهج فقد المنهج, فلم يعد لنا منهج نتميز به, ويمثل شخصيتنا العلمية, فالناس صرعى بين ضائع تائه, وبين مسلوب العقل لا يحسن إلا تكرار ما ينقل.

ثم لا تلمني بعد هذا التهيب عن الكلام, لأنني حاولت أن أتمثل قول القائل: فلما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت, واقرأ بدل الجهل الحداثة ...

وأعود إلى الكلام مصطحبا معي هذا التهيب عذرا أعتذر به عن النقص الحاصل في هذه الأوراق, عن عدم الرضا تمام الرضى عما جمعته.

مقدمة: إن استقرار المعارف وثباتها في عبر الزمن خاضع للظروف المحيطة بها, فإذا كانت تلك الظروف ثابتة مستقرة, انتشر هذا الاستقرار في المعارف, وإذا كانت الظروف دائمة التحول والتغير سرى ذلك التحول في مجال المعارف, فاضطرت باضطرابه, وماجت بتموجاته, لأن المعارف والعلوم هي من إنتاج الفكر, والفكر هو المرآة العاكسة لأحداث الواقع وهمومه, هذا بعد أن يحاول نمذجتها على وفق اتجاهاته وميوله ومقاصده.

ومرجعية قياس استقرار الظرف من عدمه هي مقارنة آنه بسابقه, حتى تتحقق لنا درجة الاختلاف, وإلا فإن المستوى الزمني الواحد لا يمكن من خلاله الكشف عن الاستقرار من عدمه, لأنه لا وجود إلى مفارقة ثانية يمكن اعتمادها أرضية للقياس.

إن النظر في حركية المعارف وربطها بالظروف المحيطة بها يمنح الجانب المعرفي حنكة وتجربة وقوة, فهو يعرفه على جوانب القوة ويميز له جوانب الضعف, ويعرفه بالإجراءات والوسائل الناجعة من غيرها, وعلى وفق هذا الإطار ارتأيت مراجعة البلاغة العربية باعتبارها تمثل ملتقى العلوم العربية, لنقارن حاضرها بماضيها, ومدى ما اكتسبه هذا العلم من إجراءات, أو ما دخله من تعديل في منظومته المعرفية, وأيضا للكشف عن نمطية هذه التعديلات, وقد تقرر أن نشرع في هذه الدراسة من تحديد طبيعة الظرفين اللذين حصرنا بينهما البلاغة, وهما التراث باعتباره هو الإطار الزمني السابق, والحداثة باعتبار الإطار الزمني اللاحق.

1- مفهوم التراث: من الناحية اللغوية جاءت من كلمة "ورث" لأن أصل التاء فيه "واو", وهو ما يخلفه الرجل لورثته[1], ومنه قوله تعالى:﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً (20)﴾(الفجر). ومعناه:"كانوا يلمون جميع تركة الميت من حلال وحرام ويسرفون في إنفاقه"[2], "وظلت كلمة التراث محدودة المعنى والاستعمال تنوب عنها الميراث ...., إلى أن

[1] ابن منظور, لسان العرب, دار المعارف, المجلد 06, مادة "ورث", (ص: 4809).

[2] هارون محمد عبد السلام, قطوف أدبية دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث, مكتبة السنة-القاهرة, ط1, 1988م, (ص: 12). وقد أشار المنصف قبل هذا إلى أنه لم يرد في العربية من الكلمات التي تبدأ بالتاء إلا ثلاثة مواد, وهي: تفث(إذهاب الشعث والدرن), تلث(التليث: ضرب من نجيل السباخ), توث(وهي لغة ضعيفة في التوت). وهنا لما وجد الصرفيون أن هناك كلمات أخرى ابتدأت بالتاء ليس لها مادة لغوية ترجع إليها, حكموا بأن هذه التاء منقلبة عن واو كالتخمة فإنها من وخم لا تخم, والتهمة من وهم لا تهم, قالوا وعلة في ذلك أن الواو حرف علة غير قوي, ووقع في أول الكلام وجد الإتيان بحرف أجلد منه فكان التاء. انظر: (صص: 11, 12, 13).

دخلنا هذا العصر الحديث, فألفينا هذه الكلمة تشيع بشيوع البحث والتنبيش عن الماضي: ماضي التاريخ, وماضي الحضارة والفنون والآداب والعلم والقصص وكل ما يمت إلى القديم بصلة"[1].

إذا: ما حدث للكلمة هو **اتساع** في دلالتها من الأمور المادية لتشمل ما هو مادي ومعنوي, المادي من الأموال والآلات وغيرها, والمعنوي كل ما له علاقة بشؤون الفكر والثقافة والأدب والدين, وكل ما تعلق **بالتركية الروحية** التي تجمع بين أبناء جيل واحد لتجعل منهم خلفا لسلف, ولعل ابن فارس كان يقصد هذا المعنى بقوله: "الواو والراء والثاء كلمة واحدة والورث والميراث, وهو أن يكون الشيء لقوم ثم يصير لآخرين بنسب أو **بسبب**"[2], فإن كلمة "**سبب**" واسعة الاحتمالات, إذ يمكن لها أن تعبر عن بعض الروابط الحسية من غير النسب, كما يمكن لها أن تشمل الروابط المعنوية المتمثلة في التاريخ والحضارة والذاكرة والهوية والسلوكات... وغيرها من الأمور الروحية.

وما نلحظه هنا أن المقياس في تحديد مفهوم التراث إنما هو مقياس زمني, أي الزمن السابق والمتقدم, ولذا فهو يتداخل مع القديم, وكان تميّز هذا المفهوم بطريقة عملية لا نظرية, أي لم يسبق تحديد هذا المفهوم بتنظير, إنما تحدد هذا المفهوم في الجانب العملي والتطبيقي. كما أننا نلحظ أن من مقاييسه أن يكون من خصوصيات تلك البيئة, ومن إبداعهم , بمعنى أنه أصيل فيهم.

ومن هذا نستنتج أن العوامل المتحكمة في تحديد مفهوم التراث هي: الزمن (القدم) والأصالة, وهذا يفتح الباب على مجموعة من التساؤلات أرى أنها جديرة بالمناقشة والتحليل؛ منها: أي هذين العاملين يدخل فعلا في تحديد مفهوم التراث من الناحية النظرية ؟ والذي يهمني: أي هذين العاملين دخل فعلا في تحديد مفهوم التراث من الناحية التطبيقية عند القراءة وبناء المعرفة ؟ ومن هذين السؤالين يمكن أن ننتقل إلى سؤال تقييمي هو : هل البحث والقراءة المعرفيين اليوم يحتكمان إلى عوامل صحيحة في تحديد مفهوم التراث؟

2- مفهوم الحداثة: أما بالنسبة لضبط مفهومها, فالأمر فيها عسير مثلما سنرى, وذلك لتنوع المقاييس التي تضبطها, فإذا جئنا إلى تحديدها من الناحية المدخل اللغوي, فهي كما يقول ابن فارس: "الحاء والدال والثاء أصل واحد, وهو كون الشيء لم يكن, يقال: حدث أمر بعد أن لم يكن"[3], يؤكد هذا المعنى ابن منظور بقوله: "والحديث نقيض القديم, ويقال حدث الشيء إذا قرن بقدم ضم للازدواج"[4], وعليه قوله صلى الله عليه وسلم: " إياكم ومحدثات الأمور", ومعناها : "ما لم معروفا في

---

[1] المرجع نفسه (ص:12).

[2] أحمد بن فارس, مقاييس اللغة, دار الحديث-القاهرة, 2008م, كتاب الواو, (ص:953).

[3] ابن فارس, مقاييس اللغة, كتاب الحاء, (ص:199).

[4] لسان العرب, مادة "حدث", ص: 896.

كتاب ولا سنة ولا إجماع"[1], وهذا المفهوم يشي بأنّ الحديث بمعنى **الجديد** الحادث, فهو بهذا المعنى يدفع تصور أن يكون الحديث هو مجرد **المعاصر** لك, ويوضح أنه أضيق مفهوما منه, إذ يشترط فيه الجدة, ويذهب بعضهم إلى أن هذه الجدة لا تعني دوما رفض القديم والمصدامة معه, يقول: "والحداثة لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي, بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى ما نسميه بالمعاصرة"[2], بمعنى أننا نجعل هذا التراث يظهر في مظهر يلاءم العصر وأحواله وغاياته, وهو ما يسمى في العادة **بالتجديد**. وعليه يكون دور الحداثة بهذا المعنى هو زرع روح المعاصرة في التراث, للارتقاء به من إطاره الزمني إلى إطار زمني آخر, دون أن يكون هناك تعارض بينهما. وهنا يبرز المقياس الزمني في كما برز في مفهوم التراث. كما أن مفهومها على هذا الاعتبار هو نسبي بدرجة كبيرة, فما كان حديثا بالأمس صار تراثا اليوم, وما هو حديث اليوم يكون تراثا غدا, وهذا المعنى يقرب بنا كثيرا من معنى **الإبداع**, فكل من أبدع شيئا أولا, كان محدثا له.

هذا من الناحية النظرية؛ فمفهوم الحداثة هو مفهوم مرتبط بالبيئة الزمنية كما ارتبط التراث, ويتداخل مع مفهوم **الجديد والتجديد والمعاصرة والإبداع**, لكن المهم من هذا هو النظر في الناحية العملية وفي المستوى التداولي, أينحصر مفهوم الحداثة في هذا الاستعمال أم أنّ له صورا أخرى غير هذه تماما ؟

إن البحث في أصل هذه الكلمة من جانبها التداولي وواقع العملي, أو ربطها بالواقع الثقافي الذي كان يعيشه العربي في بدايات تداول هذا المصطلح, نجد أن ظهوره كان بداية النهضة العربية وارتبط بها, وذلك بعد النكسة العربية في بدايات السبعينيات, حيث فقد الماضي شرعيته التي كان يتمتع بها, فحاول جيل من المثقفين تقديم نسخة من **حداثة عربية** تحاول تجاوز السقوط والتكسر, تبحث عن شرعية في المستقبل. ناسب ذلك وجود نهضة أروبية أنتجت **حداثة** كان لها الهدف نفسه؛ هو محاولة التخلص من الواقع الثقافي والاجتماعي والسياسي والخروج من حالة الضياع والسير نحو الأمام, فأنتج هذا ارتماء عربيا في أحضان هذه الحداثة التي كان ينشدها[3], خاصة بعد أن شعر بالدونية أمام هذا الغرب الذي حقق في ذلك الزمن نوعا من التقدم الصناعي.

وأمام هذا, فإنّ مفهوم الحداثة هنا يختلف عن سابقه فهو هنا بمعنى **إعلان القطيعة عن القديم**, والتخلص منه. وقد توسع هذا المفهوم إلى محاربة الدين والثورة عن النظم والتقاليد والأعراف. عندئذ بدأ الصراع بين التراث والحداثة, وقد أخذ اتجاهات وصورا متنوعة. ولهذا المفهوم والصراع أسبابه ودوافعه المنطقية في الحضارة الغربية. أما في الحضارة الإسلامية فإنه يعسر أن نجد مبررا قويا يفسر هذا الصراع

---

[1] المرجع نفسه, الصفحة نفسها.

[2] محمد عابد الجابري, التراث والحداثة دراسات ومناقشات, مركز دراسات الوحدة العربية, ط1, 1991, (ص: 15).

[3] انظر: عبد العزيز حمودة, المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية, عالم المعرفة العدد 232, ص: 23, 24, 26,

3- جدلية التراث والحداثة في البلاغة العربية : "إن تكوين أي مفهوم يخضع لعملية ذهنية معقدة ودقيقة, يسبقها أولا اتجاه الفكر بإرادة سابقة نحو مجموعة من المدركات لتنظيمها في تصور كلي جامع, وعلى أساس الإحساس بالوحدة الشاملة التي تنتظمها"[1], وجدلية التراث والحداثة وهو مفهوم من المفاهيم التي يشترط لتكوينها هذا العامل, وهو المقصدية؛ أي أن يقصد الكاتب أو الدارس نشوء مفهومين متقابلين هما: "التراث والحداثة", وقد قامت بينهما علاقة مد وجزر, وأخذ وعطاء. وحتى يكون هناك توجه نحو وجود نشوء هذه الجدلية كمفهوم لا بد من وجود عوامل أخرى من أهمها الباعث أو المحرك الذي يبعث نحو تلك الإرادة, وهذا عادة ما يكون مصدره الواقع الخارجي, فجدلية التراث والحداثة في الأدب العربي عموما لم تكن لتكون "لو لم يكن الواقع الاجتماعي والثقافي في العالم العربي قد استوعب هذه المتناقضات بين أنماط متوازية من عهود بعيدة في مجال التفكير والتعبير والسلوك الفكري والأخلاقي وبين أنماط حديثة مستوردة أو وافدة من الغرب"[2].

وانطلاقا من هذه المسلمات فإنه لا يمكن لنا رصد بداية تحرك هذه الجدلية في المجال المعرفي للبلاغة العربية إلا إذا استعرضنا السيرة المعرفية لتاريخ هذا العلم, فهي الكفيلة بأن توضح لنا زمن بروز تكوين مفهوم هذه الجدلية.

3-1: مراحل البلاغة العربية:

تلتقي أقوال الدارسين على أن البلاغة العربية في مسيرتها التاريخية قد مرت بمراحل متعددة وأطوار مختلفة, بسبب الظروف التي أحاطت بها وبدارسيها والمؤثرات التي عاشوها.

وقد اختلفت كلماتهم وآراؤهم في تحديد هذه المراحل والأطوار تبعا لاختلاف المنعرجات التي يركز عليها كل واحد منهم, وكما هو معلوم أن هذه المرحلة من الدراسة – أعني التأريخ للعلم – دوما يواجه فيها الدارس صعوبات عملية ومنهجية متعددة, " لعل أشدها عسرا وأولاها بالتفكير والتدبير الاهتداء إلى المسلك الذي يمكّن الباحث من إبراز ما يعتبره أساسيا من تحديد الفترات الحاسمة في تطور ذلك العلم, وتزداد الصعوبة تبعا للحيز الزّماني الذي يتنزل فيه البحث, إذ كلما امتدت الفترة تشعبت القضايا وتداخلت الأسباب واختلطت كليات العلم بجزئياته فتدق المقاييس التي نميز بها بين الفترات وقد تحتجب ويتعلق الناس منها بما يكون –ربما– أقلها جدوى في ضبط التحولات الكبرى"[3], لئن كان صاحب هذه الرؤية ارتكز على الحدث الجاحظي في التقسيم الزمني للبلاغة العربية في عهدها القديم, فإن الأمر بالنسبة

---

[1] محمد الكتاني, الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي, (ص:553).

[2] المرجع , الصفحة نفسها.

[3] حمادي صمودي, التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس "مشروع قراءة", منشورات الجامعة التونسية, 1981م, (ص: 13).

للعصر الحديث يبقى أشد خطورة وصعوبة منه, وهذا بسبب تعدد الآراء والاتجاهات وكثرة المنعرجات والأفكار, إلا أنّ الطابع العام له يوّحد بين أجزائه لنعده مرحلة من مراحل البلاغة, فنستخلص من هذا أنه يمكن أن نتصور للبلاغة العربية على امتداد الخط الزمني من ظهور الدراسات اللغوية إلى يومنا هذا, ثلاث مراحل كبرى[1], هي:

1- **مرحلة النشأة والتطور**: ويمكن حصر هذه الفترة في ما بين البدايات الأولى لها حتى قبيل السكاكي, ومما يميز هذه المرحلة أن البلاغة كانت تتطور فكرة فكرة وسط العلوم العربية الأخرى, استجابة لما تمليه طبيعة الحياة وشؤونها سواء تعلق الأمر بالمسائل الدينية؛ وقد كانت لها نصيب الأسد من ذلك, أو تعلق الأمر بالمسائل الشعرية ودراستها مما له صلة بالعلوم الدينية, فرجع الأمر كله إلى الدافع الديني. وقد غلب على هذه الفترة المسحة الأدبية لأن علماء هذه الفترة كان لهم زاد قوي من البضاعة الأدبية.

2- **مرحلة إعادة الصياغة والتقعيد**: وتبدأ هذه المرحلة من السكاكي مع ظهور كتابه "مفتاح العلوم" حتى بدايات العصر الحديث, وفي هذه المرحلة انصرفت الجهود إلى تلخيص وتبويب وتقسيم و تفريع ما ورثوه من زاد بلاغي, هذا دون أن نلغي بعض الجهود التي فارقت هذه المرجعية كجهود حازم القرطاجني, افتتح ذلك السكاكي بكتابه المذكور آنفا, وأتى بعده القزويني فلخصه في كتاب آخر أسماه "تلخيص المفتاح". وبقيت بعدها الدراسات تدور في التعليق والتحشية على هذا الأخير. مما جعل معظم الدارسين ينظرون إلى هذه الفترة نظرة سلبية, وعدوها مرحلة انحدار وتراجع وجمود وإليك بعض هذه الآراء المعبرة عن ذلك:

يقول أحدهم :" لم تستجب "هذه المرحلة" لناموس الحياة في تطورها, فلم تكن كتب البلاغة صدى لأدب العصور التي ألفت فيها"[2], ويقول آخر: " يبدو أن جذوة النشاط التي اشتعلت في القرن الثالث, وتوهجت في القرون الثلاثة التالية, فألقت أشعتها على أكثر جهات الفن الأدبي, أصابها الخمود, الذي كان مظهره موت الملكات الفنية, وقد كانت تجري في تناول البيان على أساس من الذوق الذي هذبته المعرفة, وتحول هذا التيار إلى وجهة لا تلتئم مع طبيعة هذا البيان, الذي دخل في طور جديد من التقسيم والتقنين والتعريف ومحاولة حصر المسائل, وهذا الاتجاه هو الذي باعد بين معنى البيان الشامل المتسع الأطراف, وبين أثره في إرهاف الحس وتنمية الملكات, وأصبح قواعد تحفظ ولا يقاس عليها, وفقدت البلاغة قدرتها على تذوق البلاغة, وتكوين البلغاء والنقاد, وإن استطاعت أن تكون طبقات من

[1] انظر: فتحي فريد, المدخل إلى البلاغة العربية, مكتبة النهضة المصرية-القاهرة, 1978م, (صص: 3, 4, 5), السيد أحمد خليل, المدخل إلى دراسة البلاغة العربية, دار النهضة العربية-بيروت, 1968م, (صص: 121...133).

[2] فتحي فريد, المدخل إلى البلاغة العربية (ص: 03).

البلاغيين يقفو بعضها بعضا وهي في أكثر الأحيان صورة حائلة لأصل مشوَّه"[1], وفي الإطار نفسه يقول ثالثهم:" ويجمع الباحثون المعاصرون على جمود البلاغة العربية وهي بين يدي السكاكي والقزويني وأمثالهم من العلماء الذين غلبوا المنطق والفلسفة على النص الأدبي, فأماتوا روحه وأبقوا على قشره, فقد أشاع السكاكي كثيرا من الالتواء والعسر بسبب ما عمد إليه من وضع الحدود والأقسام المتشعبة, فإن المباحث البلاغية تشبه دغلا ملقا, لا يمكن سلوكه إلا بمصابيح المنطق ومباحث المتكلمين والفلاسفة"[2] , وقد سار من جاء بعده على هديه . وتعمدت نقل هذه النصوص لأنها تصور صورة البلاغة السكاكية وما بعدها في عقول هؤلاء, ولهذا كان هذا بمثابة حافز دفع إلى الانتقال بالبلاغة العربية إلى مرحلة جديدة مفارقة لما كانت عليه, وهي:

3- **مرحلة العصر الحديث:** إذا فلا غرابة بعد أن رأينا هذه الطائفة من النصوص أن تكون هناك مرحلة جديدة مناقضة للمرحلة السابقة, تنادي بإعادة تشبيب البلاغة العربية وإعادة مجدها المسلوب, فبدأت مع جماعة البعث والإحياء التي انطلقت مع محمد عبده وتلاميذه, " فقد أحس بالجمود يكاد يخنق المجتمع العربي, فلا حركة فيه تدل على الحياة ... أحس أن لا قيام لهذا المجتمع إلا بترقية ذوقه... فنشط إلى إحياء الدرس البلاغي بعيدا عن السكاكي وأضرابه ممن حولوا هذا الدرس إلى رياضة عقلية, واتجه إلى عبد القاهر فتصدى لدرسه في الأزهر"[3], وكان من أخص تلاميذه محمد رشيد رضا الذي قام بطبع الكتابين وعلق عليهما, فقرب بذلك التراث من الناس, وبدأ عند ذلك الانشغال به ومحاولة تجديده, وتطويره بأساليب مختلفة وأدوات متنوعة واتجاهات متعددة, فلمعت إثر ذلك أسماء كثيرة وأنتجت كتب كثيرة, وخاصة بعد انتشار الدراسات اللسانية في الوطن العربي زاد الأمر حدّة.

من عرض هذه المراحل نلحظ أن حركية التراث والحداثة كانت سارية المفعول في كل نقطة من نقاط تاريخ البلاغة العربية, فكلما مضت مرحلة تلتها أخرى انبنت عليها إما بواسطة إضافة أو تعقيب أو استدراك, لكن كما أسلفت أولا لست أعني بجدلية التراث والحداثة هنا تلك الجدلية التي تساير طبيعة الحياة, ولا يمكن للحياة أن تنفصل عليها, وإنما أعني بجدلية التراث والحداثة تلك الجدلية التي قامت على وعي واضح وقصد بين. ونحن نلحظ الفرق واضحا عندما نقارن فاعلية هذه الجدلية بين المرحلتين الأوليتين وبين المرحلة الأخيرة من البحث البلاغي, فإننا نلف أن المرحلة الأخيرة قد تميز فيها مفهوم التراث ومفهوم الحداثة, بل والدراسة إنما قامت عند البعض على مناهضة القديم.

---

[1] بدوي طبانه, البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى, مكتبة الأنجلوالمصرية, ط3, 1962م, (ص:246).

[2] محمد كريم الكواز, البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد, الانتشار العربي-بيروت, ط1, 2006م, (ص: 268).

[3] أحمد خليل, المدخل إلى البلاغة العربية (ص: 135).

وعلى هذا فالمرحلة التي برزت فيها جدلية التراث والحداثة هي المرحلة الثالثة: مرحلة العصر الحديث. من هنا ستنصب دراستنا على دراسة مؤلفات هذه المرحلة وذلك لبيان الآلية التي عملت بها هذه الجدلية, وآثار التي خلفتها, وقبل هذا وذاك استخلاص الأسس التي قامت عليها قراءة البلاغة في ضوء هذه الجدلية. وسأحاول التركيز على قضية موضوع البلاغة كأنموذج لبيان أثر هذه الجدلية.

تتبدى لنا أن أول محاولة لتجديد (لتحديث) موضوع البلاغة كانت مع الدكتور أحمد الشايب في كتابه : الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية[1] سنة 1939م, فهو يرى بأن مباحث البلاغة العربية لا تخرج عن دراسة الجملة والصورة لتغذية قوة الإدراك النفسية , وموضوعها ينبغي أن يكون أعم من ذلك, لأنه بالنظر إلى تعريف البلاغة الذي يركز على المناسبة, والتي تدعو بدورها إلى دراسة كل ما له علاقة بها[2]. لذا وصل إلى أن موضوع البلاغة ينبغي أن يكون في بابين أو كتابين هما:

الأسلوب: ويتناول دراسة الحروف والكلمات والجمل والصور والفقرات و العبارات, على أن تدرس هذه اعتمادا على الصوت وعلم النفس وكل ما يقدم الأسلوب تقديما فنيا.

الفنون الأدبية:وتدرس هنا الفنون الأدبية وقوانينها شعرا ونثرا, من خطابة ومقالة ومقامة ووصف ورثاء ... وغيرها من الفنون والأغراض, وهذا الجزء يخضع للممارسة والدربة.[3]

وبهذا نكون حسب الدكتور الشايب قد وضعنا بلاغة تساير الأدب الإنشائي المعاصر[4], مستفدين من الدراسات المنجزة في علم النفس, لأن "علم النفس ينفعنا هنا, ويعاون مع النقد الأدبي والبلاغة في تفسير المطابقة ... وبيان موضوع دراسة البلاغة بيانا مفصلا منظما"[5] .

أما المحاولة الثانية في هذا السياق فهي للدكتور أمين الخولي في كتابه "فن القول" سنة 1947م, "وقد كان صاحب نزعة يجديدية متشبعة بالروح القومية المصرية, فجعلته ينشد تمصير الفنون من الآداب, ووضع مناهج من شأنها أن تحقق العلاقة الكاملة بين الأدب واللغة والبيئة والقومية"[6], وينطلق في كتابه هذا من دراسة البلاغة عند العرب والبلاغة عند الغرب في مستوييها الإفرادي والتركيبي ليخلص في الأخير إلى مجموعة من المقارنات ملخصها أن البلاغة عند العرب "ضيقة الحدود, قائمة على المعقول من منطق

---

[1] مكتبة النهضة المصرية, ط8, 1412هـ./1993م. أما الطبعة الأولى للكتاب فكانت سنة 1939م.

[2] انظر: المرجع نفسه (ص36).

[3] انظر: المرجع نفسه (ص37).

[4] نفسه(ص39).

[5] نفسه(21).

[6] محمد الكتاني, محاولات التجديد للبلاغة العربية, مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس, العدد 06, سنة : 1982-1983.

وفلسفة, فكانت صورة ذلك كله معروقة الوجه بادية العظم شاحبة يسيرة الحظ من النضرة والحيوية"[1] , أما يالنسبة للبلاغة الغربية والتي يعتبرها هي الحديثة وهي الحداثة, يرى يأنها "درس فني أنضر وجها وأبهى قسمات, إذ هي تعبير عن الإحساس بالجمال, تتصل من ذلك بأرقى وأنبل وأصفى ما تستطيعه الروح الإنسانية" هكذا يقول[2].

ومن هنا وجب علينا أن نجدّ في جعل هذا الدرس فنا جميلا, واقترح أن يكون ذلك عن طريق التخلية والتحلية , أي أن هناك جملة من الأمور يجب أن نجرد البلاغة منها, وأمورا أخرى يجب أن تلحق بها.

فمما هو من التخلية:

1- التخلي عن الجفوة التي بيننا وبين الفن .

2- أن نزيل من الأذهان التداخل الموجود بين مفهومي العلم والفن.

3- إلغاء التقسيم الثلاثي لفروع البلاغة .

4- إبعاد الأبحاث التي أقحمها في البلاغة اضطراب المنهج واختلاط المناهج .... الخ

مما هو من التحلية:

1- أن نعرف البلاغة بأنها فنية القول.

2- توسعة دائرة البحث البلاغي وبسط أفقه بما يتجاوز الجملة.

3- إفراد مكان لبحث المعاني الأدبية والفنون الأدبية.

4- توسيع دائرة بحث الأساليب إلى أساليب التهكم وغيرها ....الخ .

وهذه التخالي والتحالي وزعها الدكتور على أربعة أركان, هي: صور البلاغة – دائرة البحث وسعتها– المنهج وتصحيحه – الغاية وحيويتها.

وإن كانت كل واحدة من هذه التخالي والتحالي تحتاج إلى نقاش وتعقيب, إلا أننا نتجاوز هذا إلى البحث عن العوامل الحاملة على مثل هذه الاقتراحات التي جاء بها الدكتور.

إن الذي كان يسير الخولي في نقده هو محاولة جعل البلاغة العربية أداة فنية, تساير التطور الحاصل في مناحي الحياة, لأن ميول ورغبات الإنسان الحديث غير رغبات وميول الإنسان التراثي, وعليه فلا بد أن تكون هذه العلوم مواكبة للتطور, وموفية بحاجة الفرد والمجتمع, لتحقيق هذه الغاية فقد سعى إلى أن تمتاز هذه البلاغة الحديثة عن البلاغة التراثية بسمتين:

1- النزعة القومية : لأنه كان يسعى إلى تمصير البلاغة, يقول في هذا السياق: "إنما نقصد إلى القول الصَّراح في غير مواربة, بأن العربية في مصر ليست إلا عربية مصرية, إن لم تتميز مفرداتها وصيغها عن

[1] أمين الخولي, فن القول, (ص226).

[2] نفسه(ص 226).

العربية المراكشية, أو العربية العراقية, أو غير هاتين, فلا بد أن يتميز ذوقها ومزاجها الفني عن كل أوالئك اللهجات, تميزا جليا لا يصح الإغضاء عنه في دراسة فنية قوامها الذوق وميزتها الحس الأدبي, كدراسة هذه البلاغة التي نحن بصددها"[1].

ويواصل قائلا:" فنحن إنما نريد تقدير الذوق المصري الفني الخاص, والاحتكام إلى الحس الأدبي المصري, والرجوع إلى ذلك دون غيره, فيما نحدث عنه من دقائق فنية, في حسن اللفظ أو الجملة"[2].

2- النزعة الوضعية: لأنه كان يدعو وبقوة إلى التحرر من الغايات الدينية, ويستبعد النظرة اللاهوتية تماما, ولا يرى هناك أي غضاضة في أن ننكر الإعجاز البلاغي, لأنه كما يقول:" سننظر في هذا الكتاب من حيث هو أثر أدبي عربي ... لا بشيء غير هذا : من عصبية دينية أو عصبية عرقية أو ما إلى ذلك, من هوى يفسد الرأي, ويضل السبيل إلى الحكم الفني الصحيح الدقيق", والذي حمله على هذا الشطط كله, هو إحساسه الجازم بأن نظرته الفنية لا تنسجم مع القرآن الكريم.

هذه هي قراءة أمين الخولي, وهي التغيير لأن الميول والرغبات تغيرت.

ومن تتبع هذه الحركة المعرفية التي قامت في ضوء جدلية بين المفاهيم التراثية و المفاهيم الحداثية يمكن أن نسجل ما يلي:

1- أن بداية هذا التحرك المعرفي عند هؤلاء الباحثين إنما كان بتأثر من النهصة الغربية, مما يعني أن هذا التحرك بالضرورة هو مرتكز, أو على الأقل هو مشوب بكثير من المعالم التي قامت عليها تلك النهضة, ولهذا نجد الكثير من أفكار هذا التحرك المعرفي لا يقيم وزنا للقيم الدينية, بل ويحاول حتى المساس بالثوابت, هذا الوضع يفرض علينا, إن أردنا فعلا التجديد والتطوير, أن نقيم قبل مباشرتهما مفاهيم لهما واضحة المعالم, تكون نابعة من مراعاة الخلفيات الايديولوجية والثقافية والفكرية, ومسايرة لها, تسعى إلى إنماها لا هدمها و التعارض معها, لأن هناك فرقا جوهريا بين الوضع العربي والوضع الأوربي يجب أن نؤمن به وهو أن الوضع الغربي ليس له تراث أو ماض أدبي أو علمي يتقيد به أو يلتفت إليه أو يحرص على المحافظة عليه, بل إنما حقق نهضته بمهاجمة تراثه والتنكر له ومحاربته لأنه وببساطة هو سبب في تخلفه, بينما الوضع العربي يختلف عن ذلك تمام الاختلاف, بل وقل هو على الضد من ذلك تماما, فهناك ظروف وشروط كثيرة جدا توجب وتحتم عليه أن يحافظ على هذا التراث ويتقيد به, وأن يظل هذا التراث حيا متذوقا في قلبه, ومفهوما في عقله, لأن هذا التراث يمثل لديه نهضته القديمه وأساسها في الحديث, وأي تخل أو مساس أو سوء فهم لهذا التراث يؤدي به حصول انفصام في شخصيته العلمية

[1] أمين الخولي, فن القول (ص211).

[2] نفسه , الصفحة نفسها.

والثقافية, ونظرا لافتقاد العملية التحديثة لهذا جعلها تخرج من تقليد ممدوح إلى تقليد مذموم, بل وشر كله, لأنه استبدال لفكر بفكر, وتراث بتراث.

2- أن هذه الجدلية قائمة على اعتقاد أن مسيرة التطور العلمي تسير في خط مستقيم, وتنمو مع تقدم الزمن, حتى عنوان الملتقى يرسخ هذا المفهوم؛ لأنه جعل المنظور الحداثي نظاما معرفيا يتحكم في النص التراثي[1], وهذا في الحقيقة اعتقاد باطل غير صحيح, وهو أحد سببي تجاهل التراث, والطعن فيه, يقول عبد الرحمن الحاج صالح: "تجاهل بعض الباحثين للتراث العلمي العربي في ميدان اللغة وخصوصا ما اختص به العرب دون غيرهم وما ابدعوه من المفاهيم ولم يوجد ما يقابله في التراث الفكري اليوناني اللاتيني ولا المذاهب اللغوية الغربية الحديثة, هذا التجاهل ناتج بالطبع عن جهل أولا لجوهر المفاهيم والتصورات العربية, وثانيا للاعتقاد الراسخ عند أكثر المحدثين أن ما ظهر عند العرب من الأفكار ولم يثبته اللغويون الغربيون فلا قيمة علمية له ويعتمدون في ذلك على ما يقوله بعض فلاسفة العلوم مثل أوجست كونت الفرنسي الذي ادعى في القرن الماضي أن الفكر الإنساني يتطور على خط مستقيم, من الفكر الديني إلى الفكر الميتافيزيقي إلى الفكر الإيجابي أي العلمي في نظره, فلا يتصور الباحث العربي أن يكون العرب منذ ألف سنة قد توصلوا إلى ما توصل إليه العلم الحديث, وهذا الكلام ساذج كل السذاجة وقد دحضه أكثر من واحد في زماننا, وأكبر حجة في ذلك هي أن تطور المستوى الفكري والحضاري للإنسان ليس كما يزعمه متدرجا متسلسلا, فقد يرقى في هذا المستوى في زمان قصير جدا, ثم قد يحصل له استقرار لمدة طويلة , بل تراجع وانحطاط وجمود, وكم من فكرة ظهرت في غابر الزمان فلم يلتفت إليها بعد ذلك الناس حتى ظهرت من جديد في عصرنا الحاضر"[2], وعلى هذا يمكن القول بأن الحقيقة لا يحدها زمان ولا مكان, إنما يحدها الأساس الصحيح والبناء القوي المتين, والجدة غير منطوية على الصحة, بل الصحة هي الحاملة للجدة وإن كان هذا الصحيح موغلا في القدامة.

3- أن هذه الجدلية كثيرا ما تكون استجابة – كما يعللها أصحابها – لمسايرة طبيعة الحياة, ولتلبية رغبات الإنسان الحديث وميوله, ولإنتاج بلاغة تتناسب معهما, وهذا الطرح بهذه الصورة فضفاض وواسع يدخل تحته ما هو مقبول, ما هو مرفوض أو هادم, ولهذا فإن هذه القضية, وهذه الاستجابة تحتاج إلى مناقشة تبريرية وتسويغية قبل الإدلاء بها, فما مصدر هذه الميولات والرغبات؟ وهل هناك قوة ضاغطة هي التي فرضت عليه تغيير ميولاته ورغباته ؟ أو أنه التنازل عن ميول ورغبات القديمة إلى أخرى حديثة ؟ ثم هل من العلمية تحكيم الميول والرغبات التي هي جزء من الذاتية في بناء العلوم والمعارف؟ ولهذا عندما نحقق في التوجهات البلاغية المختلفة نجدها تشترك في الإقرار بكون البلاغة إنما تبحث عن

[1] كان من الممكن أن يكون العنوان كالتالي: النص التراثي و المنظور الحداثي بحث في أنماط المثاقفة

[2] بحوث ودراسات في اللسانيات العربية , المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية, الجزائر, 2007, (ج1/ص14).

فنية الأسلوب, ولكن اختلافهم إنما حصل في تقدير هذه الفنية وبيان اعتباراتها المختلفة[1], وهذا لاختلاف الأذواق والهموم, واختلافها إنما يرجع أساسا إلى الظروف الثقافية والفكرية التي يتبناها الإنسان. والله الموفق.

[1] انظر: محمد الكتاني, الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث, (ج2/ص871).